

الشعر الملحون وتاريخ الثورة من خلال بعض النماذج: (محمد بن قيطون/ بلقاسم بن زغادة / أحمد كرّومي/)

أ.د. عبد الحميد بورايو
جامعة الجزائر2، بوزريعة/الجزائر

تقديم:

يمثل الشعر الشعبي الجزائري مادة ثقافية على جانب كبير من الأهمية من حيث الدلالة التاريخية؛ فهو ينزع إلى التسجيل الدقيق للأحداث وتحديد المواقع وذكر جميع الملابسات المتعلقة بالحوادث التاريخية. لقد لعب الشاعر الشعبي خلال الفترة الاستعمارية دور المؤرخ الذي كان يسجل الوقائع بشيء من التفصيل، وخاصة تلك الوقائع المحلية المعينة من الشاعر بأسماء الأماكن والرجال الذين شاركوا فيها، والزمن الذي حدثت فيه. ولعلّ هذه النزعة التاريخية هي التي كانت وراء عناية وسائل الثقافة والإعلام الرسمية به منذ العهد الاستعماري، فسعى الباحثون إلى جمع بعضه وتسجيله بغرض استخدامه لمعرفة الوقائع التاريخية التي عجز كتاب التاريخ عن تسجيلها. أضف إلى ذلك أنّ دعوة شعراء الملحون في مختلف المناطق للمشاركة في إحياء الذكريات التاريخية أصبح تقليدا جاريا في مختلف مناطق الجزائر منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، ممّا سمح بنظم عدد كبير من القصائد في مثل هذه المناسبات تتفاوت قيمتها بنقاوت الشعراء المدعويين لحضور هذه الاحتفالات، إلى جانب ما يجري في كثير من الأحيان أثناء التهيئة لهذه

المناسبات من مهرجانات ومسابقات شعريّة يكون موضوعها عادة تاريخيًا. وهو الأمر الذي سمح للشعر الملحون الجزائريّ بالاستمرار في دوره كحامل لوعي جمعيّ بقيمة التاريخ ذات الطّبيعة الرّمزيّة.

وإذا ما عدنا إلى الوثائق التاريخيّة التي تعتمد كمصدر له أهمّيّته بالنسبة لتاريخ الجزائر، مثل المجلّة الإفريقيّة (بالنسبة لتاريخ فترة الاحتلال الفرنسيّ) لوجدنا أنّها سجّلت عددا هاما من القصائد الشعريّة الشعبيّة نظرا لأهمّيّتها التاريخيّة والتوثيقيّة. وقد كان للشعر الشعبيّ الجزائريّ أهمّيّته التاريخيّة قبل ظاهرة الاستعمار الفرنسيّ؛ فهناك بعض القصائد التي عبّرت بدقّة عن بعض الوقائع التي حدثت في الفترة التّركيّة، مثل قصيدة سعيد بن عبدالله المنداسي حول المجزرة التي اقترفها بعض الحكّام الأتراك في تلمسان في القرن السّابع عشر، وكذلك قصيدة سيدي لخضر بن خلوف حول واقعة مزغران، الخ..

لاشكّ أنّ لهذا النزوع إلى التوثيق التاريخيّ أهمّيّته بالنسبة لمجتمع يعتمد أساسا على ثقافة شفويّة، تعرّضت تقاليد الكتابة فيه إلى الاضطراب والانقطاع بسبب ظروف الصّدّام الدّاميّ والحروب وتحطيم المؤسّسات الثقافيّة.. ممّا جعل الشّاعر الشعبيّ يتكفّل بدور المؤرّخ؛ وهي خاصيّة بقدر ما نعتبرها أمرا طبيعيّا ومبرّرا، بقدر ما تثير بعض التساؤلات، ومنها ما يتعلّق بالقيمة الأدبيّة والجماليّة لهذا الشعر الذي أخذ على عاتقه أن يصف ويصوّر أحداث التاريخ في نفس الوقت. والتّأريخ مهمّة نرى بأنّها ذات طبيعة نثريّة، تتكفّل بها اللّغة الطّبيعيّة التي تتّصف بالوضوح والمباشرة والشفافيّة. غير أنّ المتأمل في الشعر الشعبيّ التاريخيّ، وخاصّة منه ما سجّل وقائع الصّمود والمقاومة في وجه الغزاة يلمس تلك الرّوح الملحميّة التي تعيد للشعر صفاءه وتطبع الكلمة والعبارة بقيمة نفسيّة، ذات بعد جماليّ، وتتجاوز البعد المعرفيّ التاريخيّ لتربط الشعر بالتقاليد الشعريّة الملحميّة

الموروثة. وسنأخذ هنا نماذج من شعر مناطق الجنوب الجزائري كمدونة نستند عليها في بيان هذه الظاهرة.

محمد بن قيطون (عاش في القرن التاسع عشر):

نال محمد بن قيطون شهرة واسعة، وأصبح معروفا في مختلف أنحاء الجزائر. سخر شعره لتمجيد أبطال المقاومة الشعبية من أبناء عرشه "البوازيد". كما كان مقربا من شيوخ زوايا المنطقة، وارتبط بعلاقة قوية مع شيخ الزاوية المختارية بأولاد جلال، ومدح الشيخ وأولاده كما رثاه بعد وفاته. اشتهر بقصيدته المطولة مرثية ((حيزية))، وكانت هذه القصيدة عبارة عن شجرة وارفة الظلال أنس إليها عشاق الشعر الملحون ورواته فكانت بالنسبة لهم ولنا الشجرة التي أخفت الغابة؛ ونقصد بالغابة هنا بقية شعر محمد بن قيطون، الذي يبدو أنه كان في زمنه شاعر فحلا، تطرق لأغراض مختلفة مثل المديح الديني، وأتقن المراثي بصفة خاصة، وكان من بين نخبة شعراء عصره.

نتوقف هنا عند قصيدة متوسطة الطول قالها في نفر من أهله شاركوا في مقاومة الاستعمار، ولما فشلت الثورة قام الجيش الفرنسي بالقبض عليهم، فأعدم عددا منهم وقضى البقية حياتهم في السجون والمنافي. وكان ذلك بالنسبة للشاعر مدعاة للشعور بالاعتزاز والفخر والألم والحزن في نفس الوقت. يقول في مستهل القصيد متوجها بالخطاب للحمام الزاجل الذي يدعوه لأن يحمل رسالته إلى أهله من البوازيد، ويعبر في هذه المقطوعة الاستهلالية عن شوقه لأهله، وينسج علاقة تعاطف مع المرسول فيدعو له بالحماية، ويحثه على الإسراع ومراعاة الحذر من الوقوع بين يدي العدو (الطيور الجارحة)، وكأنه بذلك يهيئ نفسيته المتلقي لما سيتحدث عنه فيما بعد بخصوص من وقع بين يدي العدو الاستعماري من مقاومين: خير آبن الدونان/ *ياالازرق يحميك في ظني/ * / تديش ذا العنوان / *

لولادت بوزيد بعدوني

لو كانك طيار /*/ يا مظنوني واه خفّ اشطار /*/ بلاك من الاطيار /*/

لا تامنش طيور سفاني

بلاك واستحذر /**/ اتسرّش في اللّيل واتبكر /**/ بلاك لتعشر

/**/ سلّم عنهم قاع وتجيني

ينتقل بعد ذلك للحديث عن معاناته آلام فراق أهله وتشتتهم إثر فشل حركة المقاومة التي جرت في منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر، ويذكر المقاومين الذين سقطوا في ساحة المعركة، والذين لم يعودوا إلى ديارهم، وأولئك الذين تمّ أسرهم من طرف الجيش الاستعماري. إنّه وصف مجمل للمقاومة البطولية متجلية في حالات فردية يذكرها الشاعر، وكأنّه شعر بمهمته في كتابة تاريخ منطقته وأهله. لأنّ المؤسسة الاستعمارية سوف تسجّل هذه الواقعة التاريخية من منظورها، أمّا هو فما عليه سوى أن يستعمل الجماليات الشعرية لتصوير هذه اللحظة من حياة الجماعة التي ينتمي إليها:

لحباب بالحباب /نجعي نجعي وين قالوا غاب /*/ فرقوه علشعاب /*/ مااشين

خبر اللّي على وذني

كي طاح امحمد /**/ والسرّسور عليه متلمّد /**/ مجروح ويكمّد

/**/ متأثر باجراح دخلاني

ما جاش بن عيّاش /*/ راعي الاشهب يا ابني رياش /*/

زدمو وماولّاش /*/ رجع السرّسور ظهراني

يا راعي الصّبار /شاش شاش عيدلي الاخبار /*/ آناراه قلبي طار /*/ على

خوتي الاشراف بعدوني

اطيور بحريّه /**/ راحو ماولّاوش لي /**/ ما جاوش هنأي

/**/ صيوده دوّاو عربني

صدّوا قُتوت اكبار/ * / راحوا ما بقاوا في الدّوّار / * / دوّاؤهم كفّار / *

شمتّ بيهم ذا النّصراني

كانوا مجمولين / * / واحزم احزم وفراشات مبسوطين / * / عادوا مسجونين / * / في

حبس اللاّ شفتوعينيّ

نبكي نطلّ انوح / * / بيّ خوتي غرامهم مريوح / * / ما صبت وين

نروح / * / ثارت فيّ قاع الامحان

هكذا يتحوّل الشّاعر متدرّجاً من مناجاة الحمام الزّاجل والتّعبير عن الأشواق للقاء الأهل والأحبّة، مهيباً المستمع لتلقّي نبأ الصّراع الملحميّ الذي حدث بين جماعته وأعداءها من المستعمرين، منتقلاً إلى الحديث عن هؤلاء الأخيرين وما لقوه من مصير، معيّناً ظروف الكارثة الطّارئة، واصفاً لما حدث بشيء من التّفصيل، وهكذا نجد أنفسنا بعدنّز وجهها لوجه أمام موقف رثاء يستند إلى تعداد خصال المتوفّين والمفقودين مقارنة بين ماضيهم وحاضرهم، معتمداً في كلّ ذلك على القيم الشّعريّة الموروثة، صادراً في مزجه للفخر بالرّثاء عن القيم التي تؤمن بها الجماعة التي ينتمي إليها ويتضرّع بعدنّز للخالق لكي يأخذ الشهداء إلى جنّته ويحقّق العدل فيمن ظلّ حيّاً من القوم، وكأنّه بذلك يريد أن ينبّه بأنّ الصّراع بين قومه وعدوّهم هو صراع حول السّلطة السياسيّة وليس حول شيء آخر:

نبكي على خوتي / * / اللّي ما ولاّوش البيّتي / * / خلاوني خوتي / * / وامغيّر

باجراح دخلاّتي

ناديت ياكفره / * / والله أن يعياو في الصّحراء / * / الابطال في شهره / *

ركبوهم شبّان عجبوني

يا خالق البحور / * / ردّ النّجع للّي غدا منشور / * / عنيّ لاباش يدور

*/ اتشتت عن كلّ الاوطان

اغطاهم من وردي /* وبرانس ارفاق وجريدي /* /محازم تقدي /* /من
 ذهب اللّي غايه يغني
 بارودهم بقم /* /* /فايض كيف الواد يتلطم /* /* /ثعبان يتلملم /* /* /سمو
 قاطع خوذهما منّي
 يا رافع السّماء /* /اجمعهم كما اجمعت الماء /* /يا باسط النّعمه /* /ابسط
 عنهم كلّ ما يغني
 باسمك يا قدّوس /* /ارفع كيما ارفعت ادريس /* /في جنّة
 الفردوس /* /واجعلهم من ذاك الألوان
 يا خالق الأمّه /* /اجمعهم كيما اجمعت الماء /* /يا باسط النّعمه /*
 جيبلمهم سلطان حقّاني
 انشاء الله يسعد /* /اللّي جاب القول فيه يقدّ /* /اسماه محمّد /* /في
 النّسبه معروف قيطوني
 معشوق بالنّيه /* /* /ما بي لا مال لا دنيا /* /* /بي اللّي بيّا /* /* /خوتي
 خوتي حبّهم يسني

- بلقاسم بن زغادة (1886-1978)⁽⁴⁾

نظم بن زغادة قصيدة قصيرة حول الثورة، وهي الوحيدة التي سجّلناها له
 في هذا الموضوع. وهي تبدو ذات قيمة فنيّة من حيث ابتعادها عن الخطاب
 المباشر واستعانتها بقيم القصيدة البدوية التقليدية وبلغة الشّعر الشّعبي المتوارثة،
 وبطريقة النّظم المستمدّة من التّقاليد الشّعريّة حيث يبدأ الشّاعر بالتّعبير عن شوقه
 للأحباب ومعاناته من فراقهم:

يا خوتي قلبي اخمّج وكلاه الدّود ***** لا خاطر من عندهم قلت نساله
 ثمّ يشكو قلة حيلته، ويتأسّف لعجزه عن اللحاق بالثّوار في "جبل بوكحيل"

بسبب ضعفه ووهنه:

الله لا صحه جديده شاو اهدود ***** وانسقي عن بوكحيل ونغداله
غير أنّ مثل هذا العجز المادي لا يقف حائلا دون جموح الخيال، وتصور
رحلة إلى جبل الثّوار، تشبه إلى حدّ كبير مشهد رحلة الشّاعر الصّحراويّ نحو
محبوبته، فيذكر امتطاءه لجواده وحمله للسّلاح ولزاد الفرس ولباسه، وارتحاله
قاصدا الجبل:

أزرق نبلي ما يحكّ اثاره عود ***** وانهزّ اسلحي والعماره واجلاله
يلتقي بالثّوار فيصفهم، ويرسم مشهد حملهم للسّلاح:
جيش مخير في الجبل نلقاه قعود ***** واسلاح مخطّ كلّ نعت على حاله
وينبّه إلى أنّهم لا ينامون إلّا القليل؛ يكتفون بما هو ضروريّ لضمان الطّاقة
التي تمكّنهم من القيام برسالتهم:

انطيحو عنهم في القمر والناس رقود ***** بقت نوم قليل من يجبر حاله
ويتحدّث عن معاركهم التي يخوضونها في ميدان القتال، معتنيا بصفة خاصّة
بوصف موقف القائد وهيأته، وطريقته في القتال:

الرئيس نعت السّبع داير سلسول ***** ويعاود في الطّايحين برافالو
يتخذ بعدئذ صوت المقيم للسلوك التّحرريّ والمحرّض على الثّورة وخوض
القتال، والنّابذ للتّقاعس والجبن انطلاقا من القيم الثقافيّة والدينيّة التي تؤمن بها
الجماعة:

اللي مات يجاهد خير من عايش مذلول ***** كلّ ليلة فجعه جديده لعياله
لي ميّت راه في جنّه مضمون ***** واما الحيّ يحدثونا بافعالو
ويخوض في الشّأن السّياسيّ فيتعرّض لهجاء العدو الاستعماري ممثلا في
رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة آنذاك "الماريشال ديغول"، وموقفه من الشعب الجزائريّ
لما نادى بـ"سلام الشّجعان"، بعد أن فشل في استخدام القوّة والبطش، وكذلك بعد

فشل مشاريعه لتحسين وضعية الجزائريين عن طريق تقديم بعض المساعدات للفتات المحرومة لكي تتخلى عن دعم الثورة:

ماذا من خطبات قراها ديغول ***** والزّوخ لي كان خارج ولّاه

داير نفقه للعجايز والمهزول ***** ربّي صابه غير يخسر في ماله

بعد الحرمة والجّهل ولّى مذلول ***** عاد يحلّ في الرّعيّة تهدّاله

ثمّ يستشرف الشّاعر المستقبل القريب للشعب الجزائريّ فيصوّر ما سيحصل عليه من استقلال وسيادة، واختيار لرئيس منبثق من نخبته السياسيّة الوطنيّة:

الضّغط الّي كان عنا راه يزول ***** ومع شاو الصّيف يتنحّى خياله

ويجينا سلطان بعساكر وطبول ***** فرحات المذكور والّا مثاله

تتباشر بيه العرب صحراء واتلول ***** كتملّ يا ربّي نشوفو خياله

وينهي القصيدة بالدّعاء والتّضرّع لله لكي ينصر المجاهدين، فينتهي البلاء ويعود الغائبون إلى ديارهم، متوسّلا بالله بالطّولة المقبلة على قراءة القرآن وحفظه:

يا بركة شفيح الامّه سيد القوم ***** محتند بوفاطمه مزين فاله

يا بركة شبّان يقرأو المنزل ***** ولّسع غير صبيان ما خدمو واله

يترفع هذا القضاء ويزول الشّوم ***** ويروّح من كان جالي لعياله

لا تخلو هذه القصيدة رغم غرضها الجدّي من مسحة الهزل والسخرية التي تطبع عادة أشعار بلقاسم بن زغادة، وقد لجأ إليها في تقييمه لموقف الماريشال ديغول لما قدّمه في مشهد كاريكاتوريّ، فيه كثير من المفارقة والعبث؛ وهو يأمر بتقديم المساعدات للمسنّين وضعاف الدّخل، بعد أن كان يعامل الشعب الجزائريّ بصلف واعتداد وبطش.

نلاحظ أخيرا بأنّ هذا النّوع الشّعريّ: شعر المقاومة والثّورة يمثّل الوريث الشّرعيّ لشعر المغازي القصصي التقليدي، وهو مشبع بصوره البطوليّة وبطريقته في التعبير عن الفعل البطوليّ.

أحمد كرّومي (1918-2002)⁽¹⁾

في المقطع الافتتاحي الذي يستهلّ به الشّاعر قصيدته ((أولاد بلادنا شدوّ الكيفان))⁽²⁾، يقول:

من الرّابعة والخمسين في العدوّ طرطقنا العمارة

وظلعت الاولاد بلا سناح شدوّ لها الكيفان

وعاونهم يا ربّ وزيدهم في الهمة والشّان

يوم البرومي نوفمبر ذا تاريخ الغزارة

وجيش التحرير أسّسنا باش يدقّ العديان

من خلال لغة هذا المقطع يتبيّن لنا بأنّ الشّاعر يتجاوز البعد المعرفي التاريخي (أي نقل المعرفة التّاريخيّة) إلى التعبير عن موقف من الواقعة المنقولة؛ وهو موقف حماسي عاطفي يتّجه فيه الشّاعر إلى استحضار المقام النّفسي الوجداني للواقعة. في المقطع الثّاني يلجأ الشّاعر إلى نفس الموقف ويستعمل ضمير الجمع المتكلّم ليعبّر عن موقف الجماعة الوطنيّة.. وهو موقف لا يقبله عادة التاريخ بمفهومه النّثريّ، ويصبح هنا من متطلّبات العمل الشّعريّ الملحميّ، وهو ما نعثر عليه بصفة أكثر وضوحاً في وصف الشّاعر للواقعة التي قادها الشهيد لطفي والمذكورة في نهاية القصيدة.

في قصيدة أخرى لمحمد كرّومي⁽³⁾ تحمل عنوان ((الشّعب اليوم تنظّم))

مطلعها:

ياربّي ليك اشكينا واطهر راية الاسلام ***** راه هذا الوطن حزين

نجد معالجة للتّاريخ تختلف عن المعالجة السّابقة، إذ أنّ الشّاعر لا يسعى إلى نقل الوقائع بالتّفصيل، بل يتوجّه نحو استخلاص العبرة من تاريخ المقاومة، ثمّ الثّورة ليرسم مسار التّاريخ الصّداميّ للجزائريّين في مواجهة الاستعمار، فيكتفي بذكر رموز المقاومة، ويتطوّر التّاريخ الوطنيّ في مختلف مراحله: المقاومة

الجهادية المسلّحة في القرن التاسع عشر، والحركة السياسية الوطنية الحديثة فيما بين الحربين العالميتين، والثّورة المسلّحة بعد 1954م:

الثّورة الامير بدّاهـا / ** / جاهد في الكفر خلاّهاـا / ** / كم عساكر قضّاهـا / ** / وكان

يساعف الايّام

الثّورة ان ابداهـا / ** / وعلى الجزائر راهـا / ** / يرعى ما اعطى القسّام
للمقراني خلاّهاـا / ** / ألف وثمانمائة راهـا / ** / زيد السّتين معاهـا / ** /

كاد يتبّع الارسام

كلّ ابطاله قضّاهـا / ** / راحو طول الدّوام

قعد ليها بوعمامه / ** / قايم ما خصّ اقيامه / ** / كلّ ابطاله زعامه / ** / صبرو

كذا من عام

بالسيّوف العدّامه / ** / قطعوا روس الاعجام

شعانبه فلاّعين الهانه / ** / عنان وامّ عمور معانا / ** / كلّ القبائل فتّانه / ** /

تجي يوم الزّحام

فرانسا جابت الاعانه / ** / فزعو ليها قيام

/ ** ** ** ** /

الشعب اليوم تنظّم / ** / بدا في السياسة يخدم / ** / عارف في الطّول ينجم / ** /

راه متبّع لرجام

الجيش الوطني متحرّم / ** / باه ظهر الاعلام

فرانسا راهـا مغدورهـا / ** / كبّت في قاع احدورهـا / ** / بابطال الغداء مشمورهـا / ** / تهدّم

حيط الظّلام

باقنايل الكبيرهـا / ** / طلقت فيه الحكام

في ربهـا وخمسين بديناـا / ** / في ذا الحرب اتّاوينـاـا / ** / جاهدنا في اعدوناـا / ** / وطال

الحرب القدام

في السّتين تقوينا /**/ بان الضّوء للسلام

/****/

وفي الحرب طوال مرارو /كلّ فباينا ثارو / كلّ واحد يجيب عبارو / وفات

السّابع في العام

الوطن حماها صغارو /**/ قبل الفجر العلام

كلمه زينه مختاره /**/ جابوها ذا الدّباره /**/ ذوك فراسين الغاره /**/

قبضوا الطّير السّهام

اثنين وستين ابشاره /**/ اتفاجا عنا الظّلام

تمثّل هذه القصيدة رسدا لملممة تشكّل الوطن الجزائريّ منذ الأمير عبد القادر حتّى ظهور الدّولة الوطنيّة بعد الاستقلال. استعان الشّاعر بالتّلميح والإجمال واختزال المراحل التّاريخيّة، والتّركيز على أهمّ رموز هذا التّاريخ وعلى أهمّ محطاته. وتبدو الرّوح الملحميّة واضحة في هذه القصيدة من حيث التّركيز على ذكر أبطال المقاومة، ثمّ الانتقال إلى التّعبير عن البطولات الجمعيّة، وهو نفس المسار الذي عرفته تطوّرات الإيديولوجيا الوطنيّة الجزائريّة في منطلقاتها الفكرية والتنظيميّة.

الهوامش:

1- كرّومي أحمد بن العربي من فرقة العبادلة (الحذب)، من عشيرة أولاد بوحنان، عرش ذوي منيع. عاش في البادية جنوب منطقة بشار، لم يتلقّ تعلّما مدرسيّا، عاش في بيئة تعنتي بالشعر وتمارسه في حياتها اليومية، وتحافظ على تقاليده. اشتغل بمناجم الفحم بالجنوب الغربي ابتداء من سنة 1941 حتّى سنة 1974 لما أحيل على التقاعد ممّا سبّب له مرضا مزمنّا رافقه حتّى وفاته.

2- أحمد حمدي: ديوان الشعر الشعبي: شعر الثورة المسلّحة/ بركة بوشيبة: شعراء ذوي منيع الشّعبيون (تراجم ونصوص)، طبع المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعية، الرغاية، 2002 .

3- نفس المصدر.

4- بلقاسم بن المختار الاحل من عشيرة "أولاد قرين" من عرش "أولاد حركات". ولد وعاش في سيدي خالد (أولاد جلال - بسكرة). كان من وسط فقير، لم يتلقَ تعلّماً مؤسّساتياً. اشتغل حطّاباً، ثمّ صانعا للأدوات الفلاحية، والسّقاية، وترقيع الأحذية. كان هاوياً للفروسية وللصيد، وقد تمكّن من شراء فرس رغم عوزة، ويمثّل كلّ من الفرس والغزال موضوعاً أثّرا في أشعاره. التحق بالعسكرية الفرنسيّة أثناء الحرب العالميّة الأولى. ثمّ عاد إلى موطنه سيدي خالد بعد الحرب ليغادره مرّة أخرى سنة 1937 إلى فرنسا ليشغل بمهنة حارس في مصنع. عرف عنه ميله للمرح والفكاهة والسخرية وهجاء نفسه وبعض أقربائه. وكثيراً ما يستند في نظم أشعاره على رواية النوادر التي تحدث له.